من عجـــائب التصحيف

للأســـتاذ محمود عزت عرفة

[مهداة إلى الأستاذ على الطنطاوى ، رجاء ألا ينفذ وعيده من هجر الكتابة وكسر القلم ، احتجاجاً على ما تمنى به مقالاته البارعة من مشوهات التصحيف والتحريف] .

لو يعلم الأستاذ الجليل على الطنطاوى أنى لا أكاد أقع على تصحيف واحد فى مقالاته ، إلا أن ينبه هو عليه بتصحيحه فى ذيل مقالة تالية لأخذ منه العجب مأخذه . ذلك أنى أقرأ عباراته على صحتها ، وأتناولها فى الأغلب على وجهها ؛ فيسبق لسانى إلى كلمة (المضرى) مثلا ، وهى أمام عينى محرفة إلى (المصرى) ، ولا أكاد أتنبه إلى أن (يطير به) تصحفت إلى (يطربه) الخ . وما أشك فى أن كثيراً من قراء « الرسالة » يفعلون ذلك دون تكلف أو عناء .

ولست أعرّف الأستاذ بمجهول لديه حين أقول إن التصحيف والتحريف والتبديل والتطبيع ، هى ضرائر فى لغتنا لا مخلص لنا منها ، مرجعها إلى تشابه بين بعض الحروف لا يجدى معه شكل أو إعجام . وأين نقع نحن من أسلافنا — أرباب الفصاحة وفرسان البيان — وهم قد أتوا من فنون هذا التصحيف بما أضحك منهم الثكالى وجفف دموع الباكيات ؟ بل أين من سلم فى القدماء والمحدثين من هذه الآفة ، أو تهدّى إلى وجه الخلاص منها ، إلا أن يكون — على حد قول العسكرى صاحب كتاب « التصحيف والتحريف » — « ممن اقتنى فى العلوم ، ولقى العلماء والرواة والمتقدمين فى صناعتهم ، المتقنين لما حفظوه ، وأخذ من أفواه الرجال ، ولم يعوّل على الكتب الصحفية ، ولم يؤثر شدة الراحة والتقليد على تعب البحث والتنقيب ... » ؟

هذا كتاب الله الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... لم يسلم ممن يعرض له بالتصحيف والتحريف ، وهو ما هو سريانا على ألسنة المسلمين ، والتياطا بقلوبهم ، وتمكنا من صدورهم ، لولا أن صدق الله فيه وعده : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

فقد ذكروا أن حماد بن الزبرقان ، المقرئ الراوية ، كان يصحف ألفاظاً فى القرآن لو قرئ بها لكان صواباً ، لأنه حفظ القرآن من مصحف ولم يقرأه على شيخ ، فكان مما يغلط فيه : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه » يريد « إياه » . وكان يقرأ : « بل الذين كفروا فى غرة وشقاق » والصواب « عزة » . ويقرأ : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يَعنيه » بدل « يُغنيه » .

وقرأ عثمان بن أبى شيبة على أصحابه فى التفسير : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » ، يعنى قالها كأول البقرة (ألف ، لام ، ميم) . وحدث عنه إسماعيل بن محمد البسرى قال : سمعت عثمان ابن أبى شيبة يقرأ : « وجعل السقاية فى رِجل أخيه » فقلت له : ما هذا ؟ قال : تحت الجيم واحد ! وكان أيضاً يقرأ : « وما علمتم من (الخوارج) مكلّبين » !

وينسب أصحاب حمزة الزيات إليه أنه كان يتعلم القرآن من المصحف ، وأنه قرأ يوماً وأبوه يسمع : « ألم ، ذلك الكتاب لا زيت فيه » ، فزجره أبوه وقال : دع المصحف وتلقّن من أفواه الرجال !

وكان محمد بن الحسن العطار المقرئ — المعروف بابن مُقسم — يتلو قوله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّاء ... » بالياء والهمزة فى آخره . ويقرأ بحروف أخرى تخالف الإجماع ويتمحّل لها وجوهاً بعيدة من اللغة والمعنى . قال أحمد الفرضى : رأيت فى المنام كأنى فى المسجد الجامع أصلى مع الناس ، وكأن ابن مقسم قد ولى ظهره للقبلة وهو يصلى مستدبرها ، فأوّلت ذلك مخالفته الأئمة فيما اختاره لنفسه من القراءات

هذا طرف مما أثر عن تصحيفات القراء ... أما « المحدّثون » فلهم فى ذلك ما يستخرج العجب . قال أبو على الرازى : كان عندنا شيخ يروى الحديث — من المغفلين — فروى يوماً أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجام أجُرّة ! يعنى أجره

وحدث ابن شهاب قال : أخبرنى عبد الله بن ثعلبة أن النبى

صلى الله عليه وسلم مسح وجهه « من القبح » — قال أحمد بن حنبل : أخطأ وصحّف ، إنما هو « زمن الفتح » .

وفى الحديث : إن الكافر ليجرُّ لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس . حرفه بعضهم فقال : ليجرلسانه فى سجّين ... والأول هو الصحيح

وأغرب من هذا ماحكاه القاضى أحمد بن كامل قال . حضرت بعض مشايخ الحديث من المغفلين فقال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن جبريل ، عن الله ، عن رجل قال : فنظرت فقلت: من هذا الذى يصلح أن يكون شيخ الله ؟ فإذا هو قد صحّفه ، وحقُّه — عز وجل —

وصحف رجل قول النبى صلى الله عليه وسلم: عم الرجل صِنْوُ أبيه . فقال : غم الرجل ضيق أبيه

وصحفوا : لا يرث جَميلٌ إلا ببيِّنة (والجميل الدعىُّ فى نسبه) فقالوا : لا يرث جميل إلا بثينة !

ومن الأحاديث المصحفة قوله عليه الصلوات : أتحبون أن تكونوا كالحمر الضالة ؟ قالوا : هى (الصالة) بالصاد المهملة — يقال للحمار الوحشى الحاد الصوت ، صال وصلصال ، كأنه يريد الصحيحة الأجساد الشديدة الأصوات لقوتها ونشاطها

***

وللأدباء والنحاة وعلماء اللغة تصحيفات كثيرة تتبّع بعضهم بعضاً فيها فأكثروا التتبع حتى افتضحوا جميعاً . ولا تكاد تخلو مجموعة لغوية من فصل يعقد لهذا النوع المتعنَّت من النقد . ونحن نبدأ فى هذا المقام بذكر السقطة التى أخذوها على الجاحظ (يرحمه الله) ، لأنه كان ممن لا ينفك يتتبع سقطات الرجال ، بل ليتزيد عليهم من القول بما يدعهم مضغة الأفواه وأضحوكة المحافل ... قال العسكرى فى كتابه : سمعت من يحكى عن ابن دريد - ولم أسمع هذه الحكاية منه — أنه قال : وجدت للجاحظ فى كتاب البيان والتبيين تصحيفاً شنيعاً فى الموضع الذى يقول فيه : حدثنى محمد بن سلام قال : سمعت يونس يقول : ماجاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر[1] : وإنما هو عن البُتّى (بضم الباء وكسر التاء مشددة) أى عن عثمان البتى وكان فصيحاً ؛ فأما النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا شك عند المسلم والذى أنه كان أفصح الناس . فهذا تصحيف أبى عثمان الجاحظ !

وجلس اللحيانى (أبو الحسن على بن المبارك) يملى نوادره يوماً فقال : مُثقَّل استعان بذقنه . فقام إليه يعقوب بن السكيت وهو حدث فقال : يا أبا الحسن ، إنما العرب تقول : مثقل استعان بدُفَّيه ، يريدون الجمل إذا نهض بالحمل استعان بجنبيه . فقطع اللحيانى الإملاء ، فلما كان فى المجلس الثانى أملى فقال : تقول العرب : هوجارى مكاثرى (بثين معجمة) ، فقام يعقوب فقال: أعزك الله ، ما معنى مكاثرى ؟ إنما هو مكاسرى ، كِسْر بيتى إلى كسر بيته . فقطع اللحيانى الإملاء بعد ذلك ...

وحدث أبو العيناء قال : كتبت إلى صديق لى : جُعلت فداك من السوء كله ! فلقينى بعد ذلك فقال لى : إنما أستفيد أبداً منك — لا عدمتُ ذاك — وقد كتبتَ إلى : جعلت فداك من الشوكلة . فما الشوكلة ؟ قال : فعجبت وضحكت ثم قلت : نلتقى بعد هذا وتقع الفائدة !

وحدث عون بن محمد عن أبيه قال : حضرت الأحمر وهو يملى باباً فى النحو ويقول : تقول العرب أوصيتك أباك ، يريدون بأبيك ، وأوصيتك جارك ، يريدون بجارك ، وأنشد :

عجبتُ من (دهماء) إذ تشكونا ومن أبى (دهماء) إذ يوصينا
جيرانَنا ... كأننا جافونا !

فقال له رجل : أنت تقيس الباب على باطل ، إنما هو : خيراً بها كأننا جافونا . قال : فغضب وقام !

وقرأ رجل يوماً على عبد الله بن المفجع :

ولما نزلنا منزلا طلّه الندى أنيقاً وبستاناً من النور(خالياً)

بالخاء المعجمة — فحرك المفجع رأسه وقال : يا سيد أمه ، فعلى أى شىء كنتم تشربون ؟؟ على الخسف[1] ؟ !

ولأجل هذه الشناعة فى التصحيف كانوا يتحاشونه ، ويتداعون إلى ذمه فى أشعارهم . قال ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق :

(١) كنية محمد بن الحسن بن دريد

(١) هكذا فى كتاب التصحيف للعسكرى ولعلها (الخشف) وهو أردأ التمر .